

## ٣- الراقعي

بظلم تلميزه وصديقه

الأستاذ محمد سعيد العريان

تمت

إيمان :

والراقعي رجل مؤمن إيماناً فكرياً وعقيدة ، تُشرق على قلبه وعقله حقائق هذا الدين ، فهي كأنما تأتيه تلمس في كتابته وشعره حياة تكون بها في الناس معنى يقدر على فهمه ، إذ لا يستطيعون أن يفهموه بأنفسهم ، فمن ثم تراه حين يكتب عن الدين يتدفق تدفق البحر ، وتتدفق معانيه توافع الموج ، وتردح أفكاره ازدحام الشجيرة ؛ ومن هنا تنمض معانيه على بعض من لم تشرق حقائق هذا الدين على روحه وفكره

وما سهل أن تجد كاتباً غير الراقعي يكتب بهذا الأسلوب في هذه الماني ؛ فانك لترى إيماناً أكثر من تعرف ، فكرة يستبد بها العقل للتقلب ، فهو إيمان متقلقل يتنازعه الشك ، لا يأخذ ولا يدع إلا بجلد ؛ أو تراه إيماناً عقيدته موروثه تستبد بصاحبها استبعاد الجهل والتقليد ، فهو إيمان جامد ، لا يأخذ ولا يدع إلا ما أريد على أن يأخذ وأن يدع . ولما تجد غير هذين من يؤمن إيمان الفكر والعقيدة معاً ؛ ولو قد وجد من يؤمن هذا الإيمان ، لرأيت الإسلام ينبعث اليوم كأوله ، ولما دلت المعجزة الإسلامية تكتب فصلاً جديداً في تاريخ الإنسانية

والراقعي بإيمانه ذلك ينقاد للمقدور أقياد الطاعة ، وانفقاً أن لا مفر للإنسان مما قدر عليه ؛ فلا تراه يتبرم أو يتخط لشيء يناله ، وتسمعه يقول : « جئنا إلى هذه الحياة غير مخيرين ، ونذهب غير مخيرين ، إن طوعاً وإن كرهاً ؛ فدد يدك بالرضى والتابعة للاقتدار أو اترعها إن شئت ، فانك على الطاعة ما أنت على الكره ، وعلى الرضى ما أنت على الغضب ؛ وإن تعرف في

مذاهب القدر ، إذا أنت أقبلت أو أدبرت أي وجهيك هو الوجه ؛ فقد تكون مقبلاً والمنفعة من ورائك ، أو مدبراً والمنفعة أمامك ، والقدر مع ذلك يرى بك في الجهتين أيهما شاء . وحرى بمن يوقن أنه لم يولد بناته ، ألا يشك في أنه لم يولد لقاته ، وإنما هي الغاية القدورة المتينة ، فلا الخلق يتكونك لنفسك ، ولا الخالق تارك نفسك لك ... « فمن ثم ترى الراقعي دائماً يحسن الظن بالند و يراه خير أيامه ، فهو يحاول أن يجعل من كل ألم يناله لذة يشعر بها نفسه ، ومن كل قاذحة تنزل به خيراً يترقبه ويهيئ له ، وهو يفصح عن ذلك المعنى في مقالته : سمو الفقر ، وحديث قطين ، وبين خروفين ، والانتحار ، وكتاب المساكين ، أدق إفصاح وأبلغه

ولعل أحداً لا يعرف أن الراقعي لا يرى في تلك العلة التي أودت بسمه وهو غلامٌ بسد ، إلا نعمة هيأه لهذا النبوغ العقلي الذي يملئ به في تاريخ الأدب فصلاً لم يكتب مثله في العربية منذ قرون . ولا شيء غير الإيمان بحكمة القدر وقانون التعميض ، يجعل الإنسان أقوى على مكافحة أحداث الزمن ، فلا تأخذ منه النوازل بقدر ما تعطيه . . .

مبانيه الخاصة :

وبعد ، فإنا قد رأيت الراقعي يكتب ، وجالسته وهو يفكر ، وجلست إليه ليلتي على ، وصحبته في غدواته وروحاته ، وأشركني في مطالعاته ، وأخذ مني وأعطاني ؛ فمن حق العربية على أن أصف بعض ما أستطيع مما رأيت

وحياة الراقعي بسيطة كل البساطة ؛ فهو في أشيائه بعيد كل البعد عن التأنق ، ولا يعتد بالمعرف اعتداداً كبيراً . تراه في الديوان ، وفي البيت ، وفي الشارع ، وفي القهوة — رجلاً كبعض من تعرف . ولو أنك ذهبت إليه في الديوان ، ورأيت جالساً إلى مكتبه ، يوقّع على هذه الورقة ، ويراجع تلك الحسبة ، ويحدث الناس ويحدثونه . . . لشككت أن يكون هذا هو الراقعي ؛ وقد عيّر مكتبته عن مكاتب غيره من الموظفين بضع صحف من حكومة إلى جانب ، أو كتاب جديد مستند إلى كتاب ، على أنه في عمله معروف بشدته وعنفوانه ، وكثرة دلاله أيضاً . . . وفي البيت قلما تجد الراقعي إلا جالساً إلى مكتبه مطالباً

في الخطابة جهداً كبيراً يبلغ منه . فهو لا يخطب إلا حين يدعو نفسه أو يدعو الموضوع ، فيحمل نفسه على ما يكره . . . . . فإذا دعوه أنت أنكرك على نفسه أنه خطيب ؛ ومن أين له أن يعرف . . . ؟

وفي الرافض كثير من الاعتداد بالنفس بقدر ما فيه من التواضع ، ولا أحسب أحداً يؤمن باجتماع هاتين الصفتين فيه من جلسة واحدة ، فقد يستقبلك لأول ما يعرفك بدعابة أو نادرة ، أو ينصرف عنك الى كتابه ، أو يقبل عليك في صمت وأنت تتحدث اليه ، أو يأخذ عليك أشنات الحديث فلا يدع لك أن تتكلم ، فتتصرف وما عرفت إلا لوتناً واحداً من أخلاقه . وجساء الرافض قليلون على كثرة من يعرفهم ويعرفونه .

### كيف يكتب ؟

وهو حين بهم أن يكتب ، يختار موضوعه ، ثم يتركه للفكر بعمل فيه عمله ، وللواعية الباطنة أن تهسي له مادته ، ويدعه كذلك وقتاً ، يطول أو يقصر ، يقيد في أثناءه خواطره ؛ لا تكاد تفلت منه خاطرة ؛ وهو في ذلك يستمد من كل شيء مادة ونسج ، فكان في الوجود الذي يراه صوتاً يسمعه ، وكأن لما يسمعه لوتناً يراه ، وكأن في كل شيء شيئاً زائداً على حقيقته ، على عليه معنى أو رأياً أو فكرة

فإذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف ، يأخذ في ترتيبها معنى الى معنى وجملة الى جملة ، وهذه هي الخطوط من هيكل المقالة ثم هو يعود الى هذه الخواطر المرتبة ، ينظر فيها ، ويزاوج بينها ، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد ؛ ولا يزال هكذا يزاوج ويستولد ، ويستنتج من كل معنى معنى ، وينطلق له عين كل رأى رأى ، حتى تستوى له المقالة فكرة تامة - بعضها من بعض ، فيكتبها

ولا يراه حين يكتب أو يعلى ينظر الى أصول المقالة بقدر ما ينظر في أعماق فكره الى ما يتصل بمعنى ما يكتب ؛ فقد يكون المُعَلَّى منه صفحة أو صفحتين ، فيُعَلَّى صفحات وصفحات ومذهبه في الكتابة إعطاء العربية أكبر قسط من الملتاني ؛ فهو لا يكتب الكتابة الصحافية السوقية ، لأن الهدف الذي يرمى اليه هو أن يضيف ثروة جديدة الى اللغة . ولن تجد كاتباً

أو كاتباً ، وتكاد غرفة كُتِبِه أن تكون كل نصيبه من اللار . . . . . وله صبرٌ عجيب على العمل ؛ فهو حين يجلس للمطالمة قد يظل ثمان ساعات لا يزال موضعه . ولا يسهر خارج اللار عادة إلا ليلة أو ليلتين في الأسبوع ، وسائر لياليه عمل محتمر في الكتابة أو المطالمة ؛ ويندر أن يأوى الى فراشه ليلة قبل الثانية عشرة ؛ وقد كان له عناية كبيرة بالرياضة البدنية الى عهد قريب ، وهو يحاول معظم تمرينات (ساندو) الرياضى المشهور ؛ وترى صورته قريبة من مكتبه ، الى جانب صورة محمد عبده ، وجمال الدين ، و . . . . . وملكة الجمال التركية كريمان هانم خالص . . . !

وهو لأولاده أخ كبير ، لا يدخل أحدهم اليه في مكتبه لأمر إلا داعبه بكلمة عذبة أو إشارة لطيفة ، ولكنه كلما يدخل اليه أحد منهم إلا إذا دعاه ، لتخطو له جَلْوَه

ولذا أراد الرافض أن يسهر ليلة خارج اللار ؛ فليس إلا في السيا أو في القهوة ، وذمها به الى السيا عمل أدبي أيضاً . . . فهو لا يعيل إلا لشاهدة نوع خاص من الروايات الفنية ، يكون له منها مادة ونسج . . .

وحتى في القهوة لا يريد أن يمضي وقته عبثاً ؛ فلا بد من صحف أو كتب أو مجلات ، يمضي بها الوقت ، أو يفرغ منها مع الوقت ؛ فتراه مكبياً على كتابه ، وفي يمينه قلم يشير به لإشارته ، وفي يساره لى الكركرة (١) ، وفيه الى قهها يبادلها أنفاساً بأنفاس . . . . . فإذا فرغ من الكتاب ومن الكركرة أقبل على جلسيه بمحدث عذب ، أكثره دعابة وأقله هزل . . . . . وإذا أردت أن تستمع الى الجلد الهازل ، أو الهزل الجاد ، فاجلس الى الرافض لحظات . . .

ولصوته رنة عذبة ؛ كانت حبة من مرض فمادت لحناً من الموسيقى ؛ فأنت تميز صوتة بلهجته ورنينه بين مئات الأصوات . ولو سمعت الرافض خطيباً لما حسبته هو الواقف أمامك يخطب ؛ فان صوتة يعلو ويملو ، ويمتد امتداده في الجهات الأربع ، ثم يعود اليك عود الصدى من مكان بعيد ، أرن أغن مندفعاً متحمساً ينسبك الزمان وللمكان والناس ، فإذا أنت حيث يريد أن ينقلك . ولكنك مع الأسف كلما تممه خطيباً ، لأنه يجهد

(١) الكركرة : التلججة (الفيشة) كما يسميها الرافض

يستغرق إملأه ساعات ؛ ولعل نسي في كتابته كان أكثر من  
تعبه في إملأه . . . . !

والرافى على ما يبدع في كتابته ، لا يرى ما كتبه يرضيه بعد  
الفراغ منه بساعات ، فهو دائماً يطلب الأمل ؛ وهو نوع من  
التواضع ونوع من الطموح في وقت مما . . . !

ويهم الرافى بالتموض أحياناً ؛ وليس نمة غموض فيما  
يكتب إلا عند من لم يتروّد من الأدب الصحيح ، أو يتعود  
قراءة أدب الرافى ؛ على أن كتابته في مجموعها لاتصل إلى نفس  
قارئها إلا أن يقرأها قراءة الشعر ، بقله وروحه ، لا قراءة  
القصص والروايات ، يفتش بعينه بين السطور عن معنى يسليه ،  
أو حادثة يُزجى بها الفراغ . . . ونصيحته إلى القدين يطلبون  
التسلية في الأدب ، ألا يقرأوا كتب الرافى ، فإنها لن تجدى  
عليهم شيئاً . . . !

وقد يطلب إليه الكثير من ناشئة الأدب أن يجعل أدبه  
أهون مما هو أو أقل دسماً ، فيأبى أن ينزل إلى ذلك ؛ ومذهبه أن  
يحاول جذب الجمهور إلى أعلى ، بدل أن يتدلّ هو إلى الجمهور ،  
وأن يكتب ما يرضى الفن لا ما يرضى الناس . على أنه لو أراد  
الرافى أن ينزل لما استطاع أن ينزل إلا أن يصير شيئاً غير الرافى  
لأنه على مقدار عمق الفكرة ، يكون عمق الصورة اللغوية التي  
تتأدّى بها ، ولن يستطيع كاتب من الكُتاب — فيما أرى —  
أن يرضى الفن ورضى الجمهور في وقت واحد ، حتى لو كان  
يكتب بلغة العامة ، فإن الكتابة لغة وفكر ، أفتراه إن كتب  
بلغة العامة ، يكتب أيضاً بأفكار العامة . . . ؟

وقد أخذ الرافى منذ أكثر من عام يكتب في ( الرسالة )  
نوعاً أحسبه جيداً في الأدب العربي ، جَمَعَ إلى الرافى طائفة  
من القراء لم يكونوا يقرؤون له ، وعرفه إلى الذين لم يكونوا  
يعرفونه إلا من خلال ما يكتب عنه خصومه . ولا أدلّ على قيمة  
هذه المقالات ، من ترجمة بعضها إلى غير العربية ، على ما في ترجمة  
كتابة الرافى من عنف ومشقة !

وأذكر أن بعض المستشرقين الألمان يعني بوضع كتاب  
بالإنجليزية عن ( زعماء الأدب العربي الحديث ) بمعاونة الأستاذ  
طاهر الخيري المغربي ، وقد وضع الجزء الأول منه عن خمسة من

غير الرافى يجهد جهده فيما يكتب فلا يحاول مرة أن يسخر من  
قراءه أو يُشتمرذ عليهم ليلاً فراغاً يريد أن يتلى  
وميزة أخرى تراها في كتابة الرافى ، هي أنه لا ينحرف  
مرة واحدة عن مذهبه في المادة والموضوع ، فهو هو منذ كان  
إلى اليوم ، لم يرجع من رأى رآه ، أو يناقض نفسه في منهج  
ابتدعه ، وهذا بعض أسرار الإيمان في هذا الرجل القدى لم يخالط  
نفسه قط

وله فلسفة خاصة به ، تعرف فيها طابعه وخلقه ومزاجه ، على  
حين ترى أكثر فلسفة المتفلسفين من أدبائنا منقاة من  
آراء فلان وفلان . . . وإني لأشهد أن هؤلاء أكبر من كل  
فيلسوف في الأرض ، لأنهم وعوا في رءوسهم آراء كل فلاسفة  
الأرض . . . ثم لم يزيدوا . . . !

وحظ الرافى من لغة العامة كحظّه من الفرنسية . . . فأكثر  
لغته من الكتب ، وقد استغنى بالاطلاع عن الرواية ، وبالقراءة  
عن المدايسة والاستماع ؛ وهو مع ذلك قد يصنع أغاني شمية  
بديعة ، بالغة الفأية في بلاغة العامية ، من دون أن ينحرف في  
ذلك عن أسلوبه في البيان العربي وطريقته في توليد المعاني ؛ ولعل  
قراء ( الرسالة ) لم يزالوا يذكرون له « أغنية الزبال » وراه إذ  
يحاول أن يصنع شيئاً من ذلك يرجع إلى ليسأني عن كلمة أو  
تعبير مما ينطق العامة ؛ فأقوم حينئذ منه مقام قاموس العامية ..  
وهو مع ذلك لا يرى أكثر ما تكتب الصحف إلا عامية  
راقية . . . فهو يشكو دائماً الجوّ العامي الذي يحوطه ، فكيف  
به لو كان يسمع لغو الناس . . . ؟ ومن ثمّ لا يهم الرافى أن  
يكتب إلا حاول جاهداً أن يتخلص من هذا الجوّ الذي كان فيه ،  
فيرجع إلى بعض كتب العربية يقرأ منها صفحات كما تنفق ،  
ليميش لحظة قبل الكتابة في بيئة عربية فصيحة اللسان . وخير  
ما يقرأ في هذا الباب كتابات الجاحظ وابن الفّرع . وأحب  
الكتب إليه من بعد ، كتاب الأغانى لأبي الفرج

ولكتابة الرافى جرس موسيقى خاص تتميز به ، حتى ما عليه  
على مجل بلا إعداد ولا توليد ؛ وكثيراً ما يعلّ بلا إعداد صفحات  
وصفحات ، وقد أمل على مرة مقالاً طويلاً في الرد على بعض  
الأدباء ، استغرق تسعة أعمدة من صحيفة يومية ، على حين لم

دراسات في الأدب الانكليزي

## ٢- وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

المناخورية — The Borderers

وعلى أثر هذه الهبة أخذ وردزورث إلى السكنية في بيته الجديد في « راسيدوم لودج » في مقاطعة دور تشاير منقطعاً عن العالم وما كفاً على المطالمة والانتاج ، وفي بيته هذا نظم مأساته الشعرية المشهورة « المناخون » ، وقد ضمنها خلاصة عقيدته التي اقتبسها من « وليم فودون » وفيها يدعو إلى حل الشرائع والسفن الاجتماعية وهدم الفروق بين الطبقات البشرية والنشأة بتأسيس هيئة اجتماعية جديدة شعارها المساواة والديمقراطية ، أما تأسيسها فن طريق الدعاية والجدل ، لا عن طريق العنف والشدة كما كان يؤمن في بدء حياته . ولعل هذه الفلسفة أقرب ما تكون لبدأ الشيوعية الجديدة . بيد أن وردزورث لم يطل تمسكه بهذه العقيدة بل نبذها حالاً تحقق صعوبة نجاحها وتنفيذها

كولردج وردزورث

كان كولردج الشاعر الشهير يقطن في بيت قريب من مسكن شاعرنا ، فلما علم بوجود ناظم « المقطعات الوصفية » في جواره رأى أن يزوره . ولما التقيا كان أول ما فعله أن تبادل قراءة منظوماتها وخصوصاً « الكوخ التهدم » أو « مرعريت » وقد ضُمت مؤخراً إلى قصيدته المشهورة « النزعة The Excursion » والمناخون The Borderers لوردزورث ومأساة أوساريا Osaria لكولردج

ولقد كتبت دوروثي رسالة إلى أحد أصدقائها تقول فيها : « لقد كانت خسارتك عظيمة في عدم مشاهدتك كولردج . إنه لرجل عظيم حقاً ، ولا ينطق إلا بمحدث طلي عذب يشف عن سمو روحه وقوة إدراكه ، وإنه لأسود الحاجب صلت الجبين »

كبار كتابنا ، فلما قرأ مقالات الأستاذ الراقى في ( الرسالة ) ، كتب إليه منذ قريب رسالة طويلة ينثني عليه ثناء بالتأ ، ويعدده بأن يصحح أغلاطه في الجزء الثاني من الكتاب . . . . !

الراقى القصصى :

لم يكن الأستاذ الراقى معروفاً بكتابة القصة ، حتى جاءت قصصه في ( الرسالة ) بهائناً على نوع جديد من عبقريته ، وهو يروي أكثرها عن السلف من الأئمة والخلفاء ، فما منزلة هذه القصص من الحقائق التاريخية ؟ . . . هذا سؤال أحب الكثير من القراء ينتظر الجواب عنه ؛ ذلك لأن كثيراً منهم لا يرى للراقى فيها بدءاً إلا أن يجلسها لوقتها . رأى يد هذه . . . ؟ وطريقة الراقى في كتابة هذا القصص غريبة ، فمعلمه لا أساس له من الواقع ، أو أن له أساساً لا يلهم هذه القصص الطوال البديعة في خيالها وموضوعها وفنها ، وإنما هو يفكر في موضوع الحكمة التي يريد أن يلقها على ألسنة التاريخ — على طريقتة في تأليف مقالاته — فإذا انتهى إلى ذلك تناول كتاباً من كتب التراجم الكثيرة بين يديه ، فيقرأ منها ما يتفق حتى يثر باسم ما ، فيدرس تاريخه ، وبيئته ، وخطابه ، ومجالسه ، ثم يصنع من ذلك قصة لا تزيد على سطور ، يجعلها كالبداهة والختام لموضوعه الذي أعدّه من قبل ، وإنه ليُلهم أحياناً ويوفق في ذلك توفيقاً عجيباً ، حتى تأتي القصة وكأنها بنت التاريخ ، وما للتاريخ فيها إلا سطور ، أو إلا أسماء الرجال . . . .

على أن وجه الإبداع في ذلك ، هو قدرة الراقى على أن يعيش بخياله في كل عصر من عصور التاريخ ، فيحس أحاسيس ويتكلم بلسان أهل ، حتى لا يشك من يقرأها في أنها كلها صحيحة من الألف إلى الياء . . . .

فليردنا الراقى من هنا الباب ليُعرف دعاء الجديد أى رجل هو من رجال المرية ، وما أشك أن هذا النوع من الأدب سيكون له فصلٌ بعنوانه في تاريخ الأدب الحديث

أرائي قد أطلت وما استوفيت ، على أني ما قصدت إلى دراسة الراقى ، وإنما هو المام سريع ببعض جوانبه ، على مقدار ما يتبها في الذائرة من الخواطر لوقتها ، فمذرة ، والى اللقاء بعد جمام . . . ( طنطا ) محمد سعيد العريانه